الباب الأول

الصابر ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾

[سورة الطور: الآية ٤٨].

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

للبيت رب يحميه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾

[سورة الفيل – الآيات ١ : ٥]

١

هذا يوم غريب من أيام مكة..

وعلى رغم ما اعتادت عليه من شدة الحر، فإنه لم يكن فى أيامها السابقة يوم أشد حرا من هذا اليوم؛ فمنذ الشروق والشمس قاسية أشد ما تكون القسوة، وكلما مر الوقت ازدادت أشعتها ضراوة، حتى صارت مع حلول الظهيرة سهاما مسمومة تخترق كل ما تقع عليه من شىء، فتعمل فيه الفساد والدمار، وأصبح أهل مكة يهرولون ملتمسين الظل حتى لو كان تحت شاة أو بعير.

ووراء سلسلة الجبال التى تحيط مكة كالسوار، تناثرت بحيرات الماء فوق الرمال، وقد اشتد لمعانها حتى إنها لتخدع أعتى العارفين بطبيعة الصحراء، فهذا الانعكاس اللامع لوهج الشمس يؤكد فى حسم أن ما تراه العيون ماء وليس سرابا.

فى هذا اللظى توقف ثعبان أسود هائل فوق الرمال ينتفض يمنة ويسرة، بعد أن أرهقه الزحف، فى محاولة لالتقاط نشقة هواء رطبة، أو خالية من ذرات التراب التى يثيرها أثناء حركته؛ ولم يدم توقفه طويلا، فالهدف قد أصبح على مرمى البصر، فسرعان ما عاد إلى زحفه فى إصرار، مخلفا وراءه مجرى عميقا لنهر بلا ماء، مثيرا لزوابع من الغبار تصاعدت إلى عنان السماء، وتخطت ذرا الجبال الشامخات، لتزيد الصورة جهامة على جهامة.

تصايح أهل مكة فى هلع حين رأوا سحابة الغبار تجتاز قمم الجبال:

– يا قوم لقد أصبح أبرهة الأشرم وجيشه، على مرمى القوس من أبواب مكة.

٢

فى دار الندوة جلس كبار القوم يتشاورون فى أمر هذا الشر الوافد، أما الجمهرة من العامة، فقد وقفت تترقب فى لهفة صدور قرار الحرب، فهم لم يعتادوا الخنوع أو الخوف مهما كان شأن عدوهم.

وبينما الجمع فى حمية النقاش، إذا بغريب يبرز لهم معلنا أنه رسول أبرهة إليهم، صمت الحاضرون، وران على الجمع سكون مترقب تقطعه همهمات غاضبة، بينما استمر الغريب يشق طريقه غير عابئ بالوكزات، ولا برذاذ البصاق الذى تناثر حوله فى تحد، إلى أن دخل دار الندوة ثم صاح:

– من فيكم سيد القوم وحكيمهم؟!.

أشاروا كلهم دون تردد إلى رجل مهيب الطلعة، وضاء الوجه، يتوسط مجلسهم وقالوا:

– هذا عبد المطلب بن هاشم صاحب الكلمة فينا.

اتجه الغريب إلى عبد المطلب، ثم انحنى محييا، وهو يقول:

– إن الملك أرسلنى إليك لأبلغ قومك بأنه ليس فى حاجة إلى حربكم، ولا سفك دمائكم، ولكنه أتى قاصدا هدم الكعبة وبعدها يخلى عنكم، ويرجع إلى ملكه، إن أنتم لم تعلنوا حربه، ولم تعترضوا سبيل جنده.

زمجرت الجموع مستنكرة غاضبة، فكيف يطالبهم أبرهة بأن يسالموه، ويقفوا متفرجين عليه وهو يهدم البيت الحرام رمز عزتهم، ومصدر فخارهم بين القبائل، وموطن آلهتهم التى يعبدون؟!.

ولكن إشارة من يد عبد المطلب أسكتتهم، ثم أشار على رسول أبرهة بأن يستريح بدار الضيافة، إلى أن يتشاور مع قومه فى الأمر.

وما إن اختفى الغريب، حتى قام عبد المطلب فى قومه خطيبا، قائلا والصدق يجعل كلماته كالسهام، تنغرس فى هدفها فلا تغادره:

– ورب البيت إنا لآيسون من حرب أبرهة الأشرم، فلقد أتانا فى جند يزيدون عنا عددا وعدة ولقد استقدم معه فيلا إن وطئت قدمه رجلا أو إبلا صرعته وحطمت عظامه، ولقد سبقنا واستنفر ذا نفر فرسان قومه لحربه حين مر بديارهم، لكن أبرهة هزمهم، وغلب أبطالهم، ثم قاتله نفيل بن حبيب الخثعمى وقومه فدمر ديارهم، وسبى نساءهم، ويتم عيالهم، ونهب أموالهم و أقواتهم، وإنى أرى أن نسالمه مادام قد بدأنا هو بالسلام، أما البيت فورب البيت ما قصده ظالم بانتهاك إلا وقصمه الله، هذا ما أرى، فانظروا ماذا أنتم فاعلون؟

لم يكن هناك رأى يرى بعد ما قال عبد المطلب، ولهذا أجابوه والمرارة تجعل الكلمات تتعثر فى حلوقهم، وتخرج على شفاههم مرتعدة بالهزيمة والانكسار:

– افعل ما ترى، ونحن معك.

أمر عبد المطلب بإحضار رسول أبرهة، وحين مثل بين يديه قال له:

– أبلغ مليكك أننا سنمتنع عن قتاله مادام حافظا جنده على حرمة ديارنا.

استمع الرسول إلى قرار عبد المطلب وعيناه تلمعان بالانتصار، لكنه لم يغادرهم منصرفا، بل قال:

– لقد أمرنى الملك أن أصحب سيد القوم إليه إذا ما أجبتم مطلبه.

أجابه عبد المطلب دون تردد.

– وإنى ذاهب معك إليه فلى عنده مسألة.

كانت استجابة عبد المطلب لدعوة أبرهة، مفاجأة زلزلت وجدان القوم، فإن ما تناقلته القبائل من روايات عن أبرهة يؤكد خيانته للعهود، ونقضه للمواثيق: فلماذا لا يكون طلبه مكرا بهم، ليسلبهم القائد فتسهل عليه السيطرة عليهم واجتياح ديارهم؟!.

وكما عرفوا عن عدوهم مكره وخداعه، فهم يعرفون صلابة عبد المطلب وجسارته، وإصراره على تنفيذ ما عاهد عليه، منذ قاتلهم جميعا لكى يحفر بئر زمزم وفاء للرؤيا التى رأى، وللهاتف الذى هتف به أن احفر زمزم التى طمرت فيتدفق منها الماء سقاية لحجيج بيت الله.

كانوا يقاتلونه ليمنعوه خوفا من غضب أصنامهم التى يعبدون، فلقد كان يحفر تحت أقدامها، وضربات معوله تهز الأوثان هزا حتى لتوشك أن تنكفئ، لكنه أصر ودافعهم وضاربهم، وهو ليس له من الأبناء غير ابن واحد هو الحارث، ولذا فلقد صاح فيهم زاجرا:

– أولو كان لى من الأبناء كثرة، أو كنتم تقاتلوننى فيما أنا صانع؟.. والله إنى لناذر أن أقدم للآلهة أحد أبنائى قربانا، لو رزقت بعشرة ذكور يحمونني، ويدفعون عنى أذى سفهاء مكة.

وحين تسامعت قريش بما قال عبد المطلب، انفضوا عنه لا يقاتلونه، وقد أخذهم الخزى كل مأخذ، وتقاسموا ألا يقاتلوا عبد المطلب أبدا.

وحفرت زمزم، وتفجر ماؤها، وتأكدت قريش من رجاحة عقل عبد المطلب وشفافية روحه؛ ومنذ ذاك الحادث وهم لا ينازعونه فى رأى، ولا يخالفونه فى مشورة.

إذن فليكلوا أمرهم لرب البيت، وليلجئوا إلى أصنامهم يسألونها العون ليعود إليهم عبد المطلب سالما، وإلا فأى عار ذاك الذى سيلاحقهم لو غدر به الحبشى، وهم جلوس فى ديارهم لم يحملوا سيفا و لم يرموا نبلا؟!.

٣

انطلق عبد المطلب على فرسه الأشهب مع رسول أبرهة حتى وصلا إلى خيمة الملك، وقد عسكر حولها الجند يسمرون وقد تحوطوا النار يطهون.

كان الوقت مساء، والهواء ثقيلا خانقا، والسماء سوداء مكفهرة، حالها كحال الشمس بالنهار: غريب.. غريب، لم تعتده عينا عبد المطلب، وها هى ذى النجوم خابية أنوارها، وقد دنت من الأرض وتدلت، حتى لتخال يدك واصلة إليها ممسكة بها.

قال عبد المطلب لنفسه: ورب البيت إن هذه السماء لتبيتن لأمر جلل.

وقال رسول أبرهة:

– سأستأذن لك الملك.

صاح أبرهة ونبرة النصر تلون صوته بالكبر:

– أدخلوا الهاشمى صاحب زمزم ومطعم الحجيج.

وحـين أطل وجـه عبد المطلب من باب الخيمة، انتابت أبرهة خشـية عظيمـة لتلك المهابة التى طالعته، وذاك النور الذى يضئ الوجـه بالطمأنينة، فلا قلق يبدو تأثرا من رؤية لذاك الحشد الحاشد من الجند، ولا انبهار بهذا الترف والبذخ الذى يملأ الخيمة، بل هناك سـكينة لم يشـهد مثلها من قبـل، حتى فى وجوه القسس والرهبان.

نهض أبرهة مضطربا لا يدرى ما هو فاعل؟..

هل تراه سيدعو الهاشمى لارتقاء العرش والجلوس إلى جواره، فيقال: لقد جلس القرشى على عرش اليمن، وآه له من غضبة سيده إمبراطور الحبشة حين يسمع بهذا، وهو باليقين سامعه، فلسيده فى كل ركن أذن تسمع، وفى كل مخدع عين ترى.

أو هو يجلسه تحت قدميه كما يجلس غيره؟.

لا.. لا.. محال أن يفعل هذا بعبد المطلب.

هكـذا أخذ أبرهة يردد لنفسـه رافضا الفكـرة، على رغم كونـه يتمنى أن يفعل هذا إذلالا لمن دنس رجل من قومه حرمة كنيسته؛ والفرصة سانحة، وهو مالك للأمر، لكنه غير مستطيع.

كيف؟!.

لا يدرى.

فها هو ذا يجلس على الأرض، بينما هو يريد أن يكون جالسـا هناك بأعلى، ثم ها هو ذا يشـير إلى عبد المطلب ليقترب ويجلس إلى جانبـه، بينما هو يريد أن يبعده، ولا يدنيه.

أسرع المترجم يقف خلفهما، قال أبرهة:

– سل الهاشمى بماذا يأمر فيطاع؟.

ذهل المترجم، ظن أن سمعه قد خـانه، فلم يقل مثلما قال مليكه، بل قال لعبد المطلب:

– مولاى يسأل إن كانت لك حاجة عنده فيجيبك إليها.

قال عبد المطلب:

– قل لمولاك إن جنده قد نالوا مائتين من إبلى بالأمس، فليردها على.

تغـير لون أبرهة، وبدت الدهشـة على وجهه الذى ازداد سـوادا، حين سمع مـن المترجم ما قاله عبد المطلب. سكت قليلا ثم قال:

– كنـت قد أكبرتك حين رأيتـك، وظننتك ستتوسـل إلى ألا أهدم البيـت، فإذا أنت تطلب أن أرد إليك مائتين من الإبل!!.

أجابه عبد المطلب فى هدوء:

– لأننى أنا رب الإبل، أما البيت فله رب يحميه.

تزلـزل كيان أبرهة: ما هذا الذى يسـمع، ما بال هذا الأعرابى لايـزال يصيبنى بالرهبة والخوف، ويفزعنى بسـكينته ورباطة جأشـه، إنه يقابل إقدامى على هدم البيت بهـدوء، وأنا من أصابه الهياج واجتاحـه الغضـب، وجيش الجيوش، وقطع الفيافـى والقفار، وواصـل الليـل بالنهـار، لمجرد أنى سمعت بأن أعرابيا قضى حاجته فى كنيستى التى بنيتها باليمن تقربا لمولاى إمبراطور الحبشة، وطلبا لرضاه. وإعلاء لشأن الصليب، وإبهارا للعرب حتى ينفضوا عن الحـج إلى الكعبة، ليحجوا إلى كنيستى التى بنيتها سامقة تكاد تناطح السحاب حين علمت بأن الكعبة التى يحجون إليها لا يرتفع بناؤها عن بيوتهم و خيامهم إلا أشـبارا، وزينت جدرها باللؤلؤ والمرجان، وجعلت سقفها من ماء الذهب والفضة، وصلبانهـا من الذهب والياقوت، بينما هم يحيطون كعبتهـم بتماثيل يعبدونها يصنعونهـا من الحجارة والطين، بل ومن الرطب والعسـل – وعلى رغم هذا جميعه – لم يهجروا كعبتهم، ولم يغيروا عادتهم، بل اجترءوا على كنيسـتى اسـتخفافا وتحقيرا، فلم يكتفوا بهجرها، بل لقد فعل أحدهم فعلته التى فعـل، فلم يعد أمامى إلا حد السيف أجتث به رمزهم ومزارهم، ثم ها هو ذا رئيسهم لا يطلب منى غير بضع من النوق؛ فيالهم من قوم أمرهم عجب من عجـب!!.

طال انتظار المترجم لرد سـيده على سـؤال عبد المطلب، فأعاد السـؤال على مولاه؛ انتبه أبرهة من استغراقه فى دوامة الأفكار، قال فى نبرة حاول أن يغلفها بالغطرسة:

– ردوا إليه إبله.

ثم استطرد فى غيظ وضيق:

– أكد عليه أيها الترجمان، أننى مع شروق الشمس آت إلى قريتهم، ومدمر بيتهم بضربة واحدة من قدم فيل مولاى الإمبراطور؛ وعليهم أن يلزموا دورهم مبتعدين عن طريق جندى.

ثم نهض مستديرا يصعد سلم العرش، صارخا فى حراسه:

– أروا الأعرابى الفيل.

خرج عبد المطلب إلى معسـكر الجند، فى همة من أجيبت حاجته، ثم هو يرغب فى مشـاهدة هـذا الفيـل الـذى تتناقل عنه الأعراب قصصا تفوق الخيال، كما وإنـه لم ير فى حياته فيلا، فحين قال ما قـال لقومـه كان ناقلا عمَّا جاءه من أخبار، وها هو ذا قد قدر له أن يرى، ويا هول ما يرى: فكأنما هو جبل، وحين تحرك، مادت الأرض تحت قدميه، وحين صرخ أصم أذنيه.

غادر عبد المطلب مكان الفيل عائدا إلى قومه، يسـوق إبله، وقد أصابه هم عظيم: فماذا هو مسـتطيع أمام هذا البلاء؟!.

أطلق عبد المطلب الإبل فى ساحة الكعبة، وأعلن أنه واهبها لله إذا نجى البيت من مكيدة الحبشى، ثم تعلق بحلقة باب الكعبة، وراح يدعو وقد انسابت دموعه تضمخ لحيته، وحوله جموع من القرشيين يرددون وراءه ويبكون لبكائه:

– يا رب لا نرجو لهم سواك، فامنعهم يا رب أن يخربوا قراك، فعدو البيت يا رب من عاداك.

وظل عبد المطلب على حـاله، حتى أشفق عليه من حوله، وتوسلوا إليه أن يرحم شيبته، ويكف عن تعلقه بالباب وعن البكاء، فاستجاب لهم، واتجه إلى بطون قريش ينصحهم بالفرار إلى الجبال.

٤

أوقدت المشـاعل وتصايح القوم، وجرت الأمهات لهفـى على أطفالهن يوقظونهم ويحملونهم خارج الدور، بينما أخذ الرجال يسوقون الدواب وقد حملوها بكل غال ونفيس متجهين إلى الجبال يتسلقونها، ويتدافعون إلى شعابها.

كان المنظر حزينا يدمى القلوب..

قوم مقهورون يهجرون ديارهم وسط الظلمات، ويلجون مسارب الجبال، وهم لا يعلمون ماذا ينتظرهم فيها، وما أكثر ما تخفيه بين سراديبها وصخورها من أهوال ومخاطر، فهى مرتع للحيوانات المفترسة، وللزواحف الخطرة من ثعابين وحيات، بينما هم يرون بالكاد ما هو تحت أقدامهم، وقد تصاعدت أنات المرضى والمسنين، ونداءات الأمهات على صغارهن الذين علا بكاؤهم من شدة الفزع.

وحين اطمأن الرجـال على أسرهم، التفت أبناء عبد المطلب يبحثون عن أبيهم، فلم يجدوه، فتدافعوا ومعهم أقوام منحدرين إلى حيث يوقنون بوجوده.

فى الكعبة كان واقفا يبكى، وقد رفع أكف الضراعة إلى السماء، اقتربوا منه، وقالوا فى رجاء:

– هلم معنا.

رد عليهم فى حسم:

– لن أغادر الكعبة، سأبقى منتظرا قضاء ربى، ولا أقطع الأمل فى رحمته.

توسلوا إليه قائلين:

– من أجل أبنائك تعال معنا إلى الجبال، فمكة لن تكون آمنة، فأبرهة كاره لقريتنا، وجنده شرهون للدماء، وفيله يصبح مهووسا ملووسا، إذا ما غرسوا الحراب فى جلده، فهو يطيح بقدميه وخرطومه يمنة ويسرة، يدمر كل ما يقع فى طريقه، حتى وإن دمر نفسه.

أجابهم لينهى كل حوار:

– أبنائى أبناؤكم، خذوهم على ما تأخذون عليه عيالكم.

ثم استدار مواجها الكعبة، وراح يجأر بالدعاء لله، لا يأبه بشىء.

انصـرف الرجال عائدين إلى أسـرهم، وهم فى حال من عـدم الرضا لانصرافهم عنه، فهم لم يعتادوا من أنفسـهم مثل هذا التصرف عند نشـوب الشدائد، واسـتفحال الأزمات، فهى تجعلهم يزدادون قربا وتماسكا وتوحدا، لكن ماذا تراهم فاعلين، والوقت يمر ونذير الشؤم آت مع أول خيوط النهار؟!.

كان «عبد الله» هو آخر من تبعهم، فترك ساحة الكعبة، وإن ظل قلبه معلقا بأبيه فهو أصغر الأبناء: قريـب إلى نفسـه، محبب إليه؛ وبنفس درجة حب الأب، كان مكنـون القلب عند الابن، ولذلك كان

«عبد الله» منقبض الفؤاد، كسيف البال، فهو لا يستطيع أن يبقى مع أبيه الحبيب كما يتمنى، لأنه لن يسمح له بالبقاء، بل هو سيزجره ويصرفه، كما أنه لو ترك زوجته آمنة وبقى، فمن يحقق لها الأمن وهى حامل فى ابنهما الأول، فلو سبى أبرهة وجنده أى امرأة لصارت أمة يبيعونها ويبيعون عيالها، والموت أهون من أن يحدث هذا لزوجه، أو لابنه الذى لم يره بعد، ويشتاق لرؤياه غاية الاشتياق.

وتتعثر خطوات عبد الله فى صخور الجبل فتدمى قدماه، ففكره الشارد لا يجعله منتبها للأخطار المحيطة به، ويصل عبد الله إلى حيث عسكر القوم؛ وتتلقفه آمنة فى لهفة بعد أن أقلقها تخلفه عن أقرانه، وتراه شاردا فتسأله:

– فيم تفكر يا أبا الفتى؟!.

فيجيبها:

– ورب البيت، إن الموت لأهون على مما طاف بفكرى.

وتدرك آمنة بفطرتها أنه كان قلقا عليها، وعلى الجنين الذى يتحرك فى أحشائها وتغمرها حركته بسعادة وطمأنينة، فتنحنى عليه هامسة:

– والله يا عبد الله إننا لفى حمى الله، ولقد بشرت فى منامى بأن ابننا سيكون له شأن عظيم، وسوف يتفجر لمولده النور حتى يعم قصور بصرى بالشام، فأبشر يا ابن عم، ولا تقلق عليه، فإن الله حافظه من كل سوء.

ويضىء وجه عبد الله بالبشر، فقد نزل كلام آمنة على قلبه بردا وسلاما.

٥

انصرم الليل..

ومكة هامدة كسابق عهدها منذ هجرها أهلها.

فى حب عميق، جلس الإنسان الوحيد الذى بقى بمكة، دامع العينين ينظر إلى ذلك البناء الحبيب الذى تقاتل العرب من أجل أن يكون لهم شرف خدمته وخدمة زواره.

مبنى مربع بسيط لا زخارف فيه ولا زينة، من يراه بداية يعجب من أمر ذلك الحب والتعلق الذى يربط قلوب العرب به، ولكن من يراه مرارا، سيكون أكثر منهم تعلقا وتشوقا لزيارته، والطواف به: مهللا ملبيا وداعيا رب البيت، متوسلا إليه بما يريد قضاءه.

لقد ظل هذا حال البيت منذ كانت الحياة بخلق آدم عليه السلام، ويقال إن البيت كان موجودا أيضا قبل أن يخلق الله آدم من طين، وأن البيت كان ياقوتة حمراء، وكانت الملائكة – ومازالت – تطوف حوله مسبحة لله ليل نهار، فى خشوع العابدين العارفين بقدر الخالق.

وحين رفعت الياقوتة من الأرض، بقيت قواعد البيت فأعاد جد العرب الأكبر إبراهيم عليه السلام بناءه من حجارة الجبال، وعاونه ابنه إسماعيل، الذى فجر له الله ماء زمزم حين كان طفلا، رحمة به

وبأمـه، حـين تركهما إبراهيم بصحـراء مكة: هذه البئر التى رأيت فى منامك أنك تقوم بإعادة حفرها. بعد أن طمرتها السنوات، وعندما قصصت رؤياك على أهل مكة، سخروا منك، واستهزءوا بك، ولكنك أصـررت علـى حفرهـا تنفيذا للأمر الذى أمرت به فى منامك. وحين تكشـف مـا طمر بها من دروع وذهب أرادوا أن يشـاركوك الحفر، ولكنك رفضت أن ينال ذلك الشـرف أحد غيرك، ورحت تحفر، ولا يصدهم، ولا يردهم عنك سوى ابنك الحارث، هنا أقسمت: لئن رزقك الله بعشرة من الأبناء ليذودوا عنك، ويردوا أذى قريش فإنك ذابح أحـدهم قربانا لله.

ومرت السنون..

ومن الله عليك بالأبناء العشرة..

وكان عليك الوفاء بالنذر..

وليكون العدل هو الشرعة، قبلت الاحتكام إلى هبل..

وضربت القداح و بها أسماء أبنائك العشرة..

وحتى يكون الابتلاء شديدا، خرجـت القداح على اسم: عبد الله.

وكان الوفاء صعبا..

وكان الحنث أصعب..

وما أشد الشبه بما حدث لجدك إبراهيم مع ابنه إسماعيل، وما هو حادث لك يا عبد المطلب، حين أخذت عبد الله بيد، وباليد الأخرى السكين. وها أنت ذا تتجه بعبد الله إلى حيث تقدم قريش قرابينها و تذبحها تحت قدمى: إساف ونائلة. وأبناؤك حولك يبكون.

وانتشـر الخبر بسـرعة انتشار الرمال حين تحركها الزوابع بين من كانوا بالكعبة، ثم سرى بسرعة الريح فى أنحاء مكة، فالتف من حولك الناس، وتحوطوا بك، فأصبحت تشق طريقك بصعوبة، وأبناؤك لا يذودون عنك، ولا يقرونك على ما تريد فعله بأخيهم.

وحين تمكنت من الوصول إلى أسفل الصنمين، وأنخت عبد الله، ووضعت خده فوق الثرى، وارتفعت السكين يلمع نصلها تحت أشعة الشمس الحارقة؛ إذا بابنك الحارث يلتاث ويجأر بالصراخ، ثم يجذب أخاه من تحت سـاقك، فيخمش التراب خده ويسـيل الدم على وجه عبـد الله الطيب، ويذوب قلبك ألما وحـزنا..

ألا يرحمونك من محاولة الذبح: فمن أدراهم أنك لست الذابح، ولكنك أنت الذبيح؟!.

وعلى رغم آلام نفسـك الشـديدة، تصر على معاودة الإمساك بعبد الله مرة أخرى لتذبحه؛ وفى هذه المرة لم يكن أولادك فقط هم مانعيك، ولكن قريشـا كلها أصبحت مانعتك حتى لا تسـتن سنة تروع مكة ومن فيها، فيباح للرجل ذبح أولاده الذكور قرابين.

ألا يكفيك ويكفيهم أنكم تئدون البنات، وتدفنوهن أحياء خشية العار والفاقة؟!.

وتنادى الجميع بالاحتكام إلى كاهنة من «طيبة»، تستطيع أن تفتى بالرأى فى مثل هذه المواقف، وقد كان، وزحفت الجموع إلى حافة الجبل حيث تقيم الكاهنة، وحين عرض الأمر عليها، قالت:

– كم فداء الرجل فيكم؟.

قالوا:

– عشرة من الإبل.

قالت:

– إذا فاحتكموا إلى القداح، وزيدوا الفداء حتى تخرج الأسهم على الإبل.

وتنادى القرشيون:

– الفداء.. الفداء.

وبدأ الفداء بعشرة من الإبل، وخرجت القداح على عبد الله، وأخذ رقم الفداء يكبر ويكبر، حتى وصل إلى مائة من الإبل، عندئذ خرجت القداح على الإبل، فذبحت جميعها فى ساحة الكعبة، وتركت لمن يريد أن يأكل من: إنسان، أو وحش وطير.

كل هذه الأحداث جرت بهذا المكان..

وكل ما مضى من العمر، قضيت أكثره بهذا الركن من الكعبة، فى خدمة البيت، وخدمة زوار البيت، تقدم الطعام والشراب والكساء، لمن يريد، فإن إكرام ضيوف الرحمن واجب، بل هو شرف لا يطاوله شرف آخر.

أما هذا الحبشى الذى رام هدم البيت غيرة وحقدا، ليحج العرب إلى كنيسته التى بناها بتسخير الناس، وجبرهم على البناء تحت نار البطش والخوف، فلقد بناها تفاخرا بنفسه، وتقربا لمليكه؛ فهو بناها لإمبراطوره، ولم يبنها لله؛ أما هذا البيت فمنذ وجد وهو لله.

لقد دعا جدنا الأكبر إبراهيم، وهو يرفع القواعد من البيت: أن رب اجعل هذا البلد آمنا، وارزق أهله من الثمرات، واجعل يا رب أفئدة من الناس تهوى قلوبها وتحن وتئن شوقا وحنينا إليه، فتسعى ملهوفة لزيارته، تبحث حوله عن التطهر والطمأنينة.

وحقق الله الدعاء والرجاء..

وتعلقت القلوب بالبيت، وبقيت على تعلقها لا تحيد، ولم تصرفهم الطواغيت أو الأصنام عنه: فهم يبدءون طائفين به، ثم يذهبون إلى أصنامهم، وقبل أن يغادروا مكة يعاودون الطواف مستأذنين قبيل الرحيل؛ فالبيت هو البدء وهو الانتهاء.

اللهم زد بيتك تكريما ومعزة وفخرا.

اللهم أنزل بأبرهة غضبك وسخطك.

اللهم إن البيت بيتك والحرم حرمك.

اللهم لا تمكن من بيتك ظالما أو جبارا، واجعله اللهم آمنا وأمانا للناس.

٦

أشرقت الشمس بنور ربها..

وعبد المطلب ماكث بالكعبة، لم يغادر الحجر، ولم تنم له عين، ولم يتوقف لسانه عن طلب الغوث من الله، ولم ينتبه إلى شروق الشمس. إلا حين تناهت إلى سمعه أصوات أعجمية آتية من بعد ليس بالبعيد، كانت الأصوات مختلطة بصوت صراخ ثاقب، ليس بحال صراخ إنسان أو حيوان، فهو صراخ تقشعر منه الأبدان، وتكتئب له النفوس، صراخ شؤم، ونذير خراب.

رفع عبد المطلب رأسه إلى السماء ينظر، وقد حجبت الشمس فجأة، وكادت الظلمة أن تحل في غير ميعاد، ولكن سرعان ما تبين له السبب، فلقد اندفعت أسراب من طير سود، في أفواج متلاحمة يتقدمها قائد في صدره حمرة كأنها الدم، طوفت فوق مكة.

وخر عبد المطلب ساجدا ينتحب، فلم تحتمل أذناه صراخ الطيور الغاضب، ولم تحتمل نفسه المرهفة ما جال بخاطره من أنه قد جاء أهل مكة الهلاك، لتقاعسهم عن حرب أبرهة دفاعا عن بيت الله.

ولكن الطيور لم تبق فوق مكة، بل اتجهت إلى حيث جيش أبرهة، وبدأ عصف الرياح يشتد، ويشتد، وأصبح وقوع بلاء عظيم، أمرًا لا مفر منه.

وهدأت نفس عبد المطلب، وهرول إلى باب الكعبة. يتعلق بالأستار، ويجأر مستغيثا بالله:

– اللهم اجعل غضبك على من عاداك، فنحن رب نعيش في ظل حماك.

٧

حمل العبيد بقايا طعام الإفطار من أمام أبرهة، لكنهم تساقطوا فجأة حين وصلوا إلى باب الخيمة، لقد فاجأتهم ريح عاصف، اعتذر كبير الخدم للملك، وأسرع إلى أتباعه يضربهم بالسوط، ويستحثهم على الوقوف، والعبيد يكافحون الريح ما وسعهم، ويلتقطون الأوانى من فوق الأرض في سرعة باحثين عن ملاذ يبعدهم عن غضبة الملك.

اندفع قائد الجند يعلن للملك، وهو في قمة الخوف والعجب:

– إن الفيل لا يريد أن يتحرك من مكانه يا مولاى!!.

صاح أبرهة في حنق:

– اضربوه.

قال قائد الجند في كمد:

– ضربناه يا مولاى فنهض يجرى مبتعدا عن مكة.

زمجر أبرهة، وهو يستعيد الوجه الهادئ للهاشمي، وصاح قائلا:

– سخنوا الرماح وأحرقوا بها جلده.

طحن قائد الجند ضروسه من الغيظ، وتمتم:

– فعلنا به ما هو أشد وأنكى، ولكنه انكفأ على وجهه لا يريد حراكا.

اشتد صوت الصراخ بالخارج، بعد أن كان يفد ضعيفا، استدار الملك يصعد هودجه معلنا بدء التحرك لاجتياح مكة، وتدمير البيت، وهو يتساءل غاضبا:

– ما هذا الصراخ المزعج يا قائد الجند؟!.

– إنه صراخ الفيل يا مولاى.

– ليس الفيل وحده الذى يصرخ، فأنا أسمع الجند أيضا يصرخون؟!.. وما بالك أنت أيضا تصرخ يا قائد الجند؟!.

لم يرد قائد الجند على مليكه، خرق كل الأعراف، ولم يرد، فلقد اخترق حجر أسود مسوم جدار رأسه فقتله.

كانت الحجارة تتساقط من السماء، ترمى بها الطير الأبابيل فتخترق كل ما يقف فى طريقها، وكان الجند يفرون متخبطين فى كل الاتجاهات يبحثون عن ملاذ، أو سبيل إلى فرار، ولكن أين المفر من قضاء الله؟.

لحظات.

ثم أصبح الثعبان الضخم، أشلاء مبعثرة فوق رمال الصحراء كعصف مأكول.

٨

كان عبد المطلب ما زال قابعا أمام باب الكعبة ينظر إلى السماء، وقد اغتسلت شعيرات ذقنه من كثرة ما سال عليها من دمع، وإن كان قد غادره الروع القديم، فلقد تيقن من كون الطير لن تعود إلى قريتهم، وإن ظل يعجب لتواصل صراخها ولارتفاعها ثم انقضاضها على الصحراء حول مكة؛ وزاد عجبه حين لحظ أن أبرهة لم يفد إلى مكة، ولم يبدُ على مدى البصر أثر لجنده، فهل تراه عدل عن جنونه وعاد إلى دياره، ولم لا: فها هو ذا السكون قد عم، وها هى ذى الشمس قد عادت تشرق فى زهو من جديد.

استدار عبد المطلب يخطو متجها حيث ربط فرسه، فركبها، ثم اندفع بها إلى حيث عسكر بالأمس جند الحبشى، وهو واثق من كون غوث الله قد حل؛ وكأن ريحا قد نقلته فى لحظات معدودات، فلقد وجد نفسه وسط مشهد مهول: لقد تحول معسكر الأمس إلى نثار مبعثرة فوق الرمال، أما الجند فلقد أصبحوا كأعجاز نخل خاوية، وتناثرت جثثهم على مدى اتساع الصحراء.

أخذ ينظر مشدوها، فلو أنه تخيل انتقاما يحل بأعداء بيت الله، ما وصل به خياله مهما بلغ به الشطط، إلى هذه الصورة التى يراها رأى العين، وقد حلت بجند أبرهة؛ وحين استعاد نفسه من شدة الهول الذى رأى، صاح مكبرا مهللا، ثم عاد ينهب الأرض بفرسه نهبا، ليحمل البشرى إلى من لم يدركوا قوله حين قال: إن للبيت ربا يحميه.

صعد عبد المطلب ذرا جبل حراء وراح يجأر بالبشرى، والجبال تؤوِّبُ معه:

– يـا أهـل مكة عـودوا إلى دياركم لقد أتم الله نصره، وأهلك أبرهة وجنـده، وبيت الله آمن، وأنتم آمنون بأمنه.

انحـدر أهل مكة من فوق الجبـال والتـلال يتكفأون، وقد ذبلت جفونهم وتقرحت نتيجة ليل طويل قضوه، لم تغمض لهم فيه عين، وهو ما لم تخفه صيحات الفرحة والتهليل التى أطلقوها.

وما إن عادت الدور إلى سـابق عهدها، حتى سـارع أهلها بهجرها ثانية، ولكن ياله من حال غير الحـال؛ لقد كانوا فى هجرتهم الأولى منكسـرين حزانى يتعثر بهم الخطـو. أما فى هجرتهم الآن فهم يلغطون ويهمهمون، بل يتسـابقون إلى الأرض التى أعمل الله فيها القتل بجند أبرهة، وسـبحان الله العلى القدير: هاهم أولاء أهل مكة الذين فروا ونأوا عن القتال، يغنمون جند الغزو.

عبـد الله بـن عبد المطلب، هو وحده الذى لم يندفع مع الذين تدافعـوا يتقاتلون على غنم ما تناثر فوق الرمال من سلاح ومال وملبس، و كان هذا أمرا معتادا منه، فهذا حاله دائما منذ الفداء، فهو دائم الشرود، راغب عن الدنيا ومتاعها؛ لذا راح أقرانه ينادون عليه، قائلين:

– هلم عبد الله لتنال لوليدك مغنما.

ولكنه لم يكن منتبها لندائهم، فلقد كان فكره مشـغولا بسـؤال لم تنتبه قريش إليه، قفز يؤرق باله: كيف ستدفن قريش كل هذه الجثث قبل أن يدركها العفن، فتنشر الأوبئة والبلاء ليفتك بهم؟.

وتمزق فؤاد عبد الله خوفا على من يسكـن بطن زوجه، فتأوه زافرًا: واطفلاه.

وكأنما تجاوبت السـماء لزفرته، فلقد زأرت الريح ونفرت، وهاج البحر البعيد هياجا عظيما، حتى أصبح زئير الموج يصل إلى آذانهم؛ وتصايح الرعـاة من فوق قمم الجبال محـذرين:

– الطوفان.. الطوفان.

٩

أصـاب القوم خـوف شـديد، حين وصل إلى آذانهم صوت النذير مختلطـا بزئير البحر، فاندفعوا يهربون متدافعين بما غنموا، لائذين بديارهم، بل لقد داس بعضهم بعضا، وهم يتصايحون:

– النجاة.. النجاة.

وفى سـرعة البرق خلـت الصحراء من كل تلك الآلاف المتصايحة، وران عليها صمت عظيم، صمت البشر حين تكاد أنفاسهم أن تتوقف ترقبا لهول لا يستطيعون له دفعا، وقد أحاط بهم من كل جانب؛ والسؤال الملح لا ينفك يطرق بالعنف عقولهم:

أتراه الطوفان سيهلكهم كما أهلك قوم نوح؟!.

أسرع الرجال إلى دار الندوة. يلتمسون عبد المطلب فلم يجدوه، وعثروا به متعلقا بباب الكعبة. يطلب رحمة الله وعفوه، تركوه حتى انتهى من دعائه ثم التفوا حوله متصايحين:

– يا عبد المطلب، لقد منعتنا عن حرب أبرهة.

– وهل كانت لكم القدرة على حربه؟.

– كنا سنناوشه، نكر عليه و نفر.

– ثم ماذا؟!.

– ينزل عليه غضب السماء فنتفاخر بهزيمته بين العرب.

– ومن أدراكم بأن الله كان سيرسل عليه طيرا أبابيل إذا ما كررتم عليه وفررتم، هل كنتم ستنالون الفخار، أو الهزيمة والعار؟!.

– ولكن رب البيت غاضب علينا لعدم حربنا آبرهة، وها هو ذا قد أرسل علينا الطوفان ليهدم بيوتنا، وليدمر قريتنا.

– يا قوم ثوبوا إلى رشدكم والتزموا دوركم، فلو كان ما سيحيق بنا الطوفان لهلكنا من لحظتنا، كما أهلك قوم نوح، وكما أهلك فرعون وجنوده.

ولم يكن أمامهم إلا أن ينصرفوا عنه.

فماذا تراهم فاعلين؟!.

وماذا يملكون غير الترقب والانتظار؟.

(١٠)

دون نوم..

ولليلة الثانية..

عاش أهل مكة يتسمعون أصوات الحراس الذين بثوهم فوق كل مرتفع، يرقبون حركة الماء لينبهوهم ليفروا إلى رؤوس الجبال قبل أن يدركهم الماء فيغرقهم.

ظلت الرياح تزمجر، وعواء الموج يزداد اقترابا من آذانهم، لكن الحراس لم ينبهوا إلى إحداق الخطر بهم، فلعله الوهم يجسم مخاوفهم، ويوقع الرعب فى قلوبهم.

مع إشراقة الفجر..

هدأت الرياح، ثم همدت، ولم يعد يسمع إلا صوت غثاء الغنم والإبل، ثم بدأت الديكة صياحها المعتاد مع تساقط حبات المطر.

وحلت السكينة بالنفوس.

وانهارت الأجساد المنهكة تبحث عن نوم مطمئن طال الشوق إليه، أما الرمال فقد عادت إلى صفرتها واستوائها بعد أن جرفت الأمواج فى عودتها جثث الموتى من جند أبرهة لتدفن فى قاع البحر، بينما استمرت السماء تبج المطر بجا، فكأنما الصحراء تتطهر من دنس أعداء بيت الله.

وأوفى عبد المطلب بما عاهد عليه، ونحر الإبل التى استعادها من الأشرم، وتركها مباحة لكل محتاج للحومها أو لجلودها يأخذ منها ما شاء حين يشاء.

وفـى شمـوخ، كانت الكعبة تسـتقبل الطائفين والعاكفـين، وقد زاد قدرها وسمـت منزلتها، وظل عبد المطلب لا يمل مرددا لكل من يفد من الحجيج:

– ألم أقل لكم إن للبيت ربا يحميه، وأنه لن يناله ظالم بظلم، ولا معتد بإثم.

وكانت آمنة زوجـة عبد الله لا تنى تتلمس جنينها فى حب شديد، وتقول لأبيه فى يقين كامل:

– ورب البيـت إن كل هـذه المعجـزات التى تحدث لتمهد للرؤيـا التى رأيتها، ولكرامة ابننا الذى ستنير لولده قصور بصرى.

أما القسيسـون والرهبان فلقد رأوا فيما حدث البشـارة الأولى لقرب الميـلاد العظيم لأحمـد الذى هو مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل، وأضمروها نارا تأكل قلوبهم حقدا وغيرة، ولم يعلنوها، بعد أن تبين لهم أن وفوده سيكون من مكة.

وعن أبرهة فيروى التاريخ أن الطاعون قد أصابه وهـو فى طريق عودته، وأن لحمه كان يتساقط نتفا، وعاش ما عاش من أيام منبوذا، حتى من خدمه الذين كانوا يفرون منه، خوفا من أن يصيبهم ما أصابه من بلاء، إلى أن انفجر قلبه، وانفرطت عظامه رميما.

❑❑❑